

تفسير ابن كثير

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ وَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا^ج وَمَا
نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ^ج فَإِنْ يَتُوبَا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ^ص وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِ^سبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^ج

وقوله : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) قال قتادة :
نزلت في عبد الله بن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلا ن : جهني وأنصاري ، فعلا الجهني على
الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصار : ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا
كما قال القائل : " سمن كلبك يأكلك " ، وقال : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز
منها الأذل) [المنافقون : 8] فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي - صلى الله عليه
وسلم - فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وروى
إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة ، عن عمه موسى بن عتبة قال : فحدثنا عبد الله بن الفضل
، أنه سمع أنس بن مالك - رضي الله عنه - يقول : حزنت على من أصيب بالحرّة من
قومي ، فكتب إلي زيد بن أرقم - وبلغه شدة حزني - يذكر أنه سمع رسول الله - صلى

اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول : اللهم اغفر للأَنْصار ولأَبْناء الْأَنْصار - وشك ابن الفضل في أبناء
أبناء الْأَنْصار - قال ابن الفضل : فسأل أنسا بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم ، فقال
: هو الذي يقول له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أوفى الله له بأذنه . وذلك حين
سمع رجلا من المنافقين يقول - ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب - : لئن كان
هذا صادقا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم : فهو والله صادق ، ولأنت شر من
الحمار . ثم رفع ذلك إلى رسول الله ، فجدده القائل ، فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد -
يعني قوله : (يحلفون بالله ما قالوا) الآية . رواه البخاري في صحيحه ، عن إسماعيل بن
أبي أويس ، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة . إلى قوله : هذا الذي أوفى الله له بأذنه
ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة ، وقد رواه محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة
بإسناده ثم قال : قال ابن شهاب . فذكر ما بعده عن موسى ، عن ابن شهاب . والمشهور
في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق ، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية ،
وأراد أن يذكر غيرها فذكرها ، والله أعلم . [حاشية] قال " الأموي " في مغازيه :
حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك

، عن جده قال : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذني قومي فقالوا : إنك امرؤ شاعر ، فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ببعض العلة ، ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه . وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ، ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي - صلى الله عليه وسلم - الجلاس بن سويد بن الصامت ، وكان على أم عمير بن سعد ، وكان عمير في حجره ، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين ، قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير [قال] فسمعها عمير بن سعد فقال : والله - يا جلاس - إنك لأحب الناس إلي ، وأحسنهم عندي بلاء ، وأعزهم علي أن يصله شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحك ولئن كتمتها لتهلكني ، ولإحداهما أهون علي من الأخرى . فمشى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر له ما قال الجلاس . فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى يأتي النبي - صلى الله عليه وسلم - فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ، ولقد كذب علي . فأنزل الله - عز وجل - فيه : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) إلى آخر الآية . فوقفه رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - عليها . فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ، ونزع فأحسن
النزوع هكذا جاء هذا مدرجا في الحديث متصلا به ، وكأنه - والله أعلم - من كلام
ابن إسحاق نفسه ، لا من كلام كعب بن مالك . وقال عروة بن الزبير : نزلت هذه الآية
في الجلاس بن سويد بن الصامت ، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء ، فقال الجلاس
: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشرف من حميرنا هذه التي نحن عليها . فقال مصعب
: أما والله - يا عدو الله - لأخبرن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما قلت : فأثيت
النبي - صلى الله عليه وسلم - وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة ، أو أن أخلط
بخطيئته ، فقلت : يا رسول الله ، أقبلت أنا والجلاس من قباء ، فقال كذا وكذا ، ولولا
مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك . قال : فدعا الجلاس فقال : يا جلاس
، أقلت الذي قاله مصعب ؟ فحلف ، فأنزل الله : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة
الكفر وكفروا بعد إسلامهم) الآية . وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة -
فيما بلغني - الجلاس بن سويد بن الصامت ، فرفعها عليه رجل كان في حجره ، يقال له :
عمير بن سعيد ، فأنكرها ، فحلف بالله ما قالها : فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع ، وحسنت

توبته ، فيما بلغني . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم ،
حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن
عباس قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالسا في ظل شجرة فقال : إنه
سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني الشيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه . فلم يلبثوا أن طلع رجل
أزرق ، فدعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : علام تشمتني أنت وأصحابك ؟
فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم ، فأنزل الله - عز
وجل - : (يحلفون بالله ما قالوا) الآية . وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في
كتاب " دلائل النبوة " من حديث محمد بن إسحاق ، عن الأعمش عن عمرو بن مرة ،
عن [أبي] البخري ، عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال : كنت آخذا بخطام
ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقود به ، وعمار يسوق الناقة - أو أنا : أسوقه ،
وعمار يقوده - حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها ، قال :
فأنبهت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [بهم] فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، قد كانوا

متلثمين ، ولكننا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة ، فيلقوه منها . قلنا : يا رسول الله ، ألا تبعث إلى عشائرتهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى [إذا] أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالديلة . قلنا : يا رسول الله ، وما الديلة ؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك . وقال الإمام أحمد - رحمه الله - : حدثنا يزيد ، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة تبوك ، أمر مناديا فنادى : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ العقبة فلا يأخذها أحد . فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقوده حذيفة ويسوقه عمار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، فغشوا عمارا وهويسوق برسول الله ، وأقبل عمار - رضي الله عنه - يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحذيفة : قد ، قد . حتى هبط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [فلما هبط] نزل ورجع عمار ، فقال : يا عمار ، هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت

عامة الرواحل ، والقوم متلثمون . قال : هل تدري ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم .

قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيطرحوه . قال : فسار عمار رجلا من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر . فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعذر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم ثلاثة قالوا : والله ما سمعنا منادي رسول الله ، وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثني عشر الباقيين حرب الله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . وهكذا روى ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة بن الزبير نحو هذا ، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي ، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة ، فتبعهم هؤلاء نفر الأزدلون ، وهم متلثمون ، فأرادوا سلوك العقبة ، فأطلع الله على مرادهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمر حذيفة فرجع إليهم ، فضرب وجوه رواحلهم ، ففرعوا ورجعوا مقبوحين ، وأعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حذيفة وعمارا بأسمائهم ، وما كانوا هموا به من الفتك به ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأمرهما أن يكتما عليهما . وكذلك روى يونس بن

بكير ، عن ابن إسحاق ، إلا أنه سمى جماعة منهم ، فالله أعلم . وكذا قد حكى في معجم
الطبراني ، قاله البيهقي . ويشهد لهذه القصة بالصحة ، ما رواه مسلم : حدثنا زهير بن حرب
، حدثنا أبو أحمد الكوفي ، حدثنا الوليد بن جميع ، حدثنا أبو الطفيل قال : كان [بين]
رجل من أهل العقبة [وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس ، فقال : أنشدك بالله ، كم
كان أصحاب العقبة] قال : فقال له القوم : أخبره إذ سألك . قال : كنا نخبر أنهم أربعة
عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب
الله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - ولا علمنا بما أراد القوم . وقد كان في حرة فمشى ، فقال :
إن الماء قليل ، فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قوما قد سبقوه ، فلعنهم يومئذ . وما رواه
مسلم أيضا ، من حديث قتادة ، عن أبي نضرة ، عن قيس بن عباد ، عن عمار بن ياسر
قال : أخبرني حذيفة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : في أصحابي اثنا عشر
منافقا ، لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها حتى يلج [الجمل] في سم الخياط :
ثمانية تكفيهم الديلة : سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم . ولهذا

كان حذيفة يقال له : " صاحب السر ، الذي لا يعلمه غيره " أي : من تعيين جماعة من المنافقين ، وهم هؤلاء ، قد أطلعه عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دون غيره ، والله أعلم . وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ، ثم روى عن علي بن عبد العزيز ، عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشير ، ووديعه بن ثابت ، وجد بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف ، والحارث بن يزيد الطائي ، وأوس بن قبيط ، والحارث بن سويد ، وسعد بن زرارة وقيس بن فهد ، وسويد وداعس ، من بني الحبلي ، وقيس بن عمرو بن سهل ، وزيد بن اللصيت ، وسلالة بن الحمام ، وهما من بني قينقاع ، أظهر الإسلام . وقوله : (وما نقوموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أي : وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به ، كما قال ، عليه السلام للأَنْصار : ألم أجِدْكم ضالًّا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ كلما قال شيئًا قالوا : الله ورسوله أَمَن . وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى : (وما نقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) [البروج : 8] وكما قال - عليه السلام -

ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله .ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال : (فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة) أي : وإن يستمروا على طريقهم (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا) أي : بالقتل والهيم والغم ، (والآخرة) أي : بالعذاب والنكال والهوان والصغار ، (وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) أي : وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ، ولا يحصل لهم خيرا ، ولا يدفع عنهم شرا .